حديث الشهر

مع سلوى في عرب العرب

مؤلف

محمود تيمور

بقلم

محمد عبد الحليم عبد الله

لم يكن محمود تيمور موافقا على ان اقدم له هذا الحديث لانه رئيس تحرير مجلة القصـــة . لكنني ذكرته بانه سيكون غائبا عن مصر ... ود لو غرته ... سيكون في احد مستشفيات « برشلونة » في اسبانيا لعلاج عينيه عندما ينشر هذا الحديث ، وعند ذلك وافقني على ما اقترحته عليه .

كانت اجراءات سفره قد تمت مساء ذلك اليوم .. حين جلست انتظر قدومه في احد صالونات نادي القصة . وجاء في بذلته السوداء ذات الصدارى التقليدى . وسمعت وقع اقدامه فقمت لاستقباله ..

لم يكن يبدو عليه قلق المسافرين حينما جلسنا للتحدث . ولم يبد انه خائف من شيء . واخذت اعلل هذه الظاهرة بيني وبين نفسي متسائلا : هل سبب هـذه الطمأنينة كثرة اسفاره حتى اصبحت المصاعب وفرقة الاهل والوطن « عادة » تكتم انفاس الحنين ؟! لكن محمود تيمور لم يدعني استغرق في تفكيري كأنه احس بما في صدري ... فأخذ يحدثني عن رعاية الدولة للكتاب وانه تحت ظل هذه الرعاية قد يسر له كل شيء ... وسيعود اكثر قدرة على القراءة ... فكأنما رعاية وطنه له قد جعلت كل غربة وطنا كريما .

وكانت رائحة القهوة تفوح في الصالون وتيمور على كرسي عال على مقربة من النافذة ... تلك التي ارى منها حدائق « جاردن سيتي » تظهر بوضوح وتغيب في غموض كلما اضاء وانطفأ اعلان بانوار (النيون) فوق احدى العمارات العالية .

كنت اتامل وداعة هذا الرجل ... التي لم تتخل عنه قط . يخيل الى انه عندما يغضب يكون غضبه وديعا ايضا ... فطرة صافية تؤمن بالرحمة والحب والسلام . يحدثك دون ان يحملق فيك . واذا اخرجته تبسم .

انيق دائما فكأنما مظهره الخارجي صورة لنفسه الأنيقة .

ما رايت شيئا في هندامه مهملا قط ... ترى ماذا كان في شبابه .

لم تجعله سن السبعين ... (وارجو الا اكون مخطئا) ... قليل الصبر ولا سريع الملل .

رأيت ذلك بنفسى فى رحلة قطعتها معه بالسيارة الى مدينة النصورة لحضور مهرجان أدبى ٠

وكان تيمور يحمل معه (اناقته) فى حقائب كبيرة ٠٠٠ ربما خرج بعضنا مهمل الهندام أو غير حليق الذقن ٠٠٠ لكنه خرج من حجرته فى الصباح بنفس الهندام والاناقه ٠

يحسن الاستماع والمجاملة ٠ ويعز عليه أن يجرح حتى الذين يجرحونه ٠

اذا وثق او احب او عطف زالت السدود بينه وبين من وثق فيه او احبه او عطف عليه ٠

وكان هذا الحديث الأدبى بينى وبينه أن قلت له

ـ انى أشم منك دائما رائحة تولستوى ٠٠

عند ذلك فتح عينيه ونظر الى وقال مبتسما وقد اصطبغ وجهه بالحمرة

ـ تولستوى ؟ ٠٠٠ آ ٠٠٠ لماذا ؟ ٠٠٠ على كل حال أظن أن فى هـذا شرفا ٠

قلت لمحمود تيمور

ـ ان أهل الفكر أسرة واحدة يشرف بعضهم بالانتساب لبعض ٠٠ كلهم ينتمون لأب واحد ٠٠ هو الأدب ٠٠٠ هو البحث ـ بالنيابة عن الناس ـ عن مستقبل أكثر اشراقا ، وحصال أكثر ملاءمة لان نعيش متجاورين فى سلام ٠

عندئذ حمل تيمور دقنه على باطن راحته واطرق فرأيت الوداعة الانسانية التى خلعت عليها السنون لونا من الوقار ٠٠٠ فتصور معى مريحا من الوقار والوداعة ـ

ثم قال لى وهو شبه شارد

ـ تولستوى !! ٠٠ انى أحب هذا الرجل ٠

فأحببت

ـ وأنا أتابعك فى حبه ـ وعلى كل فهذا جميل ٠٠٠ مادمت أرى فيك روائح منه ٠ فكأنى احببتك مرتين مرة فى صورتك الأصلية ومرة فى صورة الانسان الذى تشبهه ٠

ـ وما أحببت فى تولستوى ؟

ـ أحببت الرجل الذى نادى بأن يأخذ كل انسان من الأرض ما يكفيه ٠٠٠ نعم يا سيدى وأنت تعرف هذه القصة ٠ ذا الملامح القوية والقلب الرقيق ٠ ٠ الكونت ٠ الذى حاصم القيصر من أجل الشعب والقيصر ابن عمه ، وكان ذا بطش وسلطان عظيمين ٠

لقد ولدت في أسرة غنية ولكنك عشت مع الناس . احسست السعداء والفقراء والطيبين وكذلك فعل تولستوى .

وقد جعلني هذا ابدأ بسؤالك عن قصة « سلوى في مهب الريح » .

ـ مالها ؟

ـ عن الملابسات والحوادث التي كانت سببا في ميلاد هذه القصة ـ

تأكدت أن محمود تيمور يتذكر أشياء بعيدة عن « سلوى » ... نفس الأشياء الذي ذكرها طه حسين عن هذه القصة يوم حملها اليه البريد في صيف ما وهو في فرنسا . قال ذلك طه حسين في خطاب ألقاه في مجمع اللغة العربية في سنة ١٩٥٠ حين رحب به عضوا جديدا . قال طه حسين عن قصة « سلوى » انها جعلته ينصرف تماما عما كان حريصا على قراءته من الأدب الفرنسي ليقرأها وقد قضى وقتا سعيدا في قراءة الأدب العربي وهو في فرنسا .

نعم . كان تيمور يتذكر . كانت وداعة وجهه ترداد اشراقا كلما اوغل في الذكرى . ثم مالبث أن قال :

ـ لعل أحداث القسم الأول منها وقع في رمل الاسكندرية أيام كنت اتردد على كازينو سان استيفانو في صيف ١٩٣٠ ... أيام شبابي .

وابتسم في استحياء كمن يكتم شيئا فابتسمت مشجعا للذكرى أن تنساب نحو الاديب الكبير . قائلا له :

اعتقد اننا لسنا بصدد رصد حوادث شخصية دقيقة يا سيدي ولكن ... الذي لا شك فيه ان هناك جزءا من حياة الكاتب يخص كل الناس .

فسارع مؤمنا :

ـ نعم نعم . انني لا أداري شيئا . والذي أريد أن اقوله في صدق ووضوح ويقين هو ان « سلوى » هـذه شخصية من الشخصيات التي قابلتها في كازينو سان استيفانو في ذلك الصيف .

وكنت ايامها التقي بعديد من الشخصيات منها من هو شعبي ومنها من هو غير شعبي ... من تلك الطبقة المستغلية التي لم تعد موجودة والحمد لله في مجتمعنا . لكنني احببت سلوى هذه ..

وعاد يتسم وهو يشير بسبابته : احببت سلوى بمعنى انها ملكت علي تفكيري ... اهتممت بأمرها .. ليس حبا بالمعنى المشهور ولكنه اهتمام بالشخصية والمصير . ولعلك تذكر أن سلوى هـذه في القصة فتاة من الشعب انحرفت انهـا فاحتضنتها جـدها ..

قلت لتيمور :

ـ هل تسمح لي أن أقاطعك لبرهة قصيرة . هنا ابنة ذا تصور فتاة من الشعب احتضنها جدها واسمها سلوى وكانت أمها مجهولة . فنحن الآن أمام فتاة من الشعب وانحراف ثم احتضان ورعاية من مؤلف ولد في بيت عمي وجاه .

وهذا هو الذي جعلني أشم رائحة تولستوي في نادي القصة هذا المساء حتى أكاد أرى صورته على أحد الجدران وتولستوي يا سيدي صور في احدى قصصه ، الانحراف وفتاة من الشعب والاحتضان والرعاية وهو من هو ، أما الفتاة التي من الشعب فاسمها ، ماسلوفا ، بنيمة ولدت وتربت في بيت عمتي بطل القصة .. قصة ، البعث ، ـ وهناك في القصر الريفي وقع اعتداء على ، ماسلوفا ، من نخليودوف الشاب الذي كان عند عماته ـ ولكن نخليودوف وجد نفسه ذات يوم يدافع عن هذه الفتاة ليخرجها من السجن لأنه كان أحد المحلفين في قضية اتهمت ، ماسلوفا ، فيها بفعل تاجر من سيبيريا وحكم عليها خطأ بالأشغال الشاقة .

إن قلب الفنان لا يعرف الاستعلاء . قلب الفنان مهاد للبشرية . عش مفروش بالرغبة . حتى ولو ولد الفنان ولا يملك أحد التحكم في مولده ـ بين طبقة عنية أو مستغلية فماذا تعلب يا سيدي في قصة سلوى دفاعا عنها ؟

قال تيمور :

ـ سلوى التي كانت تابعة لبنت زهيري باشا والتي كانت تأكل فضلات طعامها وتلبس خليع ملابسها كان لابد لها في هذا الوضع أن تحس بأن انسانيتها ليست في وضعها الطبيعي . فالعدالة الاجتماعية شيء والصدقات شيء آخر وكلاهما له ظل نفسي واثر اجتماعي مختلف . فلسنا نعجب اذا رأينا سلوى تحقد على بنت الباشا فكان اختطاف سلوى لروح بنت الباشا نوعا من الاحتجاج على الوضع الاجتماعي الحالي من التكافؤ .

وان كانت الحوادث الدموية في قصة البعث لتولستوي تناسب ـ بلا شك ـ خيالك وذكريات شبابك فان حوادث ، سلوى في مهب الريح تناسبك بالضرورة خيالي وذكريات شبابي .

ـ اقنعت .

ـ عظيم !!

فحركت كفا بكف شاب من يتردد في سؤال . انتبه الى محمود تيمور وتحصني بعينيه الهادئتين وقال :

ـ أرى على وجهك شيئا تريد أن تخفيه .

قلت :

ـ انا لا اعرف الكثير عن ذكريات طفولتك . كل علمي أنك ابن العالم الكبير احمد تيمور ... فكيف كنت في ظل هذه النوحة .

وبدا تيمور وكأنه عاد طفلا في رعاية أبيه . على وجهه امارات براءة لا تخلو من مرارة ... ربما كانت عميقة .

عندئذ عرفت سر القلب الذي تحدث عن حب الأشياء والاشياء وربما النساء .

بتردد وحيرة • سر الذى تحدث عن الشفة العليظة والبنات اللاهيات اللاعبات ببراءة المقدمات طعامهن للعصافير ••

عرفت ان تيمور افتقد اول امراة في الحياة يدور حولها القلب وتترعرع في محرابها العواطف ، بيضاء قدسية كريمة ••• ثم ••• تتحول ••• الى حب آخر مع امراة اخرى •• غيرها •• غير الام • الام •

فقد فقد تيمور امه وهو ابن خمس سنوات • ما افظع هذا !! وترمل ابوه وهو في سن الثلاثين فتزوج « المكتبة » •

وحين يتزوج الرجل المراة الثانية فانه على كل حال سيخاف منها على اولاده ولو بين حين وحين • سيفيق ليذكرهم • اما حين يتزوج الارمل « مكتبة » فعليه العوض •

كان محمود تيمور في حضانة المربيات • كان ــ ولا شك يتسلل الى والده وهو في جناح المكتبة في عين شمس او عزبة قويسنا فيقف على مقربة منه خجلا لائذا بباب او جدار ويحس به الاب لوهلة فيبتسم له وعندئذ لكي يخلو لنفسه يقدم له قبلة وقطعة من الشيكولاته ياخذها محمود ويخرج وقد ترك خلفه كل ما يريد • انه ما كان يريد الا والده • لكن والده مشغول ••• ولذلك فتش الابن عن شيء يشغله ومنذ شب صادق شقيقه محمد تيمور وجعله مرشدا له ، وسارا معا في طريق الادب وكان محمد بالنسبة لمحمود الاخ الاكبر والصديق المجرب •

لكن ••• اظن انها حياة لا تخلو من الحرمان • انها المائدة العظيمة ••• الحافلة بكل الوان الطعام لكنها مع الاسف خالية من « ملح الطعام » •

ولذلك فاسى اعلل الحزن المقنع الذى يشبه التفكير في حياة محمود تيمور بسر النشاة الاولى • لم يكن في حياته ام وتزوج ابوه بزوجة اب لا تقهرها سماء العالم ••• بالمكتبة ••

لم نكن نشعر بالوقت ونحن جالسان • انا ومحمود تيمور ، شعرت اننا من مواليد عام واحد • تحمل ذكريات طفولة متشابهة ••• اندماج النفوس حين تصفو • عند ذلك سألته :

لقد عرضنا لتولستوى البطل الاشتراكى الذى اعتبره غاندى نبيه • فهل من الممكن ان تحدثنا بمناسبة تولستوى والاشتراكية واعياد ثورتنا العربية عن معنى ادب الثورة ؟

كانت انوار « اليون » في هذه الوهلة تلقى وجهها على حدائق « جاردن سيتى » وكان محمود تيمور ينظر نحو لوحة زيتية على الحائط وكنت متاكدا لان اكتب مايقول، جاءت ببساطة تعد الى قلب سامعه :

ــ اسمع يا عبد الحليم ••• لقد رايت ناسا يعيشون من ريع الالف فدان ورايت آخرين معهم يعيشون من ريع (الصفر) ••• هذا شيء غير معقول • والقوانين الاشتراكية جعلتنا نعيش في مجتمع العدل والكفاية

... نعم ... هذا جميل ... وكل كاتب يريد أن يعبر عن هذا المجتمع الجديد المطرد الازدهار لابد أن يذكر أنه كاتب . وهناك فرق بين القوانين والقصة بل هناك فرق بين القانون نفسه وروح القانون . فروح القانون يعرفها القاضي الذكي وحده وروح الحياة الاشتراكية هي التي والأدب يعبر عنها الكاتب المبدع بطريقة تشبه تطبيق القاضي البارع لروح القانون .

حتما سيعبر الكتاب عن مجتمعنا الجديد لأن القصة بسيطة أشبه بمعادلة رياضية ذات نتيجة حتمية . كاتب . ومجتمع . وتعبير .

ومن هؤلاء الثلاثة يخرج العمل الأدبي مطابقا للمجتمع حاملا سمات الكاتب . ولا يمكن أن يختلف العمل الأدبي الا اذا انعدم الكاتب ... وبما أن الكاتب موجود والمجتمع موجود فلابد من حدوث التعبير ... معادلة رياضية .

غير أن الناس يختلفون دائما حول درجة التعبير الأدبي ومدى مطابقته لظروف المجتمع . ومن حقهم أن يختلفوا لأن العمل الأدبي والفن ليس فيه « كلمة واحدة » الكلمة الواحدة في العلم فقط .

قلت لتيمور :

ـ هذا معقول . واحب أن اضيف انه ان الناس يودون أن يكون الأدب في قوة قائد الثورة . وانا من صميم قلبي أود ذلك . لكي قائد الثورة يعطي الأدب مادة خاما ينسج منها روائعه على مدى طويل وحين يكون الأدب في سرعة الثورة بحيث تسير الأحداث الثورية والأعمال الأدبية المصورة لها على خطين متوازين ـ حين يكون الأمر كذلك فان الأديب يصبح في درجة كاتب التاريخ على الأكثر . والأديب يقدم وثيقة والمؤرخ يقدم وثيقة غير ان هذه تخالف تلك . وثيقة الأديب مخلوقة وأصولها في أرض المجتمع ووثيقة المؤرخ منقولة واصولها في ارض المجتمع .

ثم قلت لتيمور :

ـ أنت رائد من رواد القصة العربية ، كتبتها أيام كانت كتابة القصة عملا في الدرجة الثانية بعد الشعر والمقالة . فهل من ذكريات عن هذه الفترة التاريخية ؟!

ـ حركة ريادة القصة على الأصول الفنية الحديثة بدأت عندنا حوالي سنة ١٩٢٠ على يد رواد منهم محمد تيمور وطاهر لاشين . وكان أبي يلتقي برواد القصة في المكتبة السلفية عند محب الدين الخطيب ...

ثم أطرق تيمور قليلا ورفع رأسه وقهقه بالضحك دعاه . عجبت فقال دون أن أسأله :

ـ تسألني لماذا أضحك ؟ أضحك لأنك قد لا تصدق أن والدي لم يدخل نادي محمد على في حياته .

قلت

ـ لأنه كان مشغولا بأشياء جدية .

فقال تيمور :

ـ كان يفضل الجلوس مع الشيخ الطويل والشيخ الورقاني على صالونات نادي محمد علي ـ وتوسع في شراء الكتب وكان يجلس الى كل كتاب ومعه قلمه ليترك آثارا على هوامشه ، فضلا على ثلاثة أولاد هم : اسماعيل ومحمد ومحمود .

وكان مع محمد تيمور وطاهر لاشين حسين فوزي وابراهيم المصري وحبيب سعيد .

كنا مشغولين بالقصة وكانت معدودة من سقط المتاع ... شيئا هينا لا قيمة له ، وأذكر انني جلست مع احد الأساتذة ودار بيننا حديث حرنا الى مجهوداتي الأدبية فقلت له ببساطة : انني على وشك أن أخرج مجموعة قصصية جديدة ، فرد علي ملاطفا حائفا أن يجرح شعوري قائلا : اعتقد انه من الخير لك في المستقبل ان تؤلف بحثا او رسالة .

قلت لمحمود تيمور :

ـ اظن ان كل من حديث دخل اليها عانى عرقه وعانى رواده نفس العرقة ، وهذا شيء طبيعي ، فقد كانت النظرة الى الممثل والممثلة والمغني والمغنية في أوائل هذا القرن شيئا مخالفا لما هي عليه الآن . وكذلك الصحافة حتى بالنسبة للرجال .

ان الأنواع الأدبية تدافع عن نفسها في وطنها أمام كل نوع وافد وذلك لاعتبارات منها الوطنية ومنها المصلحة الشخصية ، ثم ... ان هناك انواعا أدبية تكون أكثر مناسبة لروح العصر وربما لطبيعة العترة التي تحياها أمة من الأمم ، فالشعر في بعض الفترات قد يكون أروح من القصة .

ولعلنا نذكر تدهور الشعر العربي في صدر الاسلام حين انشغل المسلمون بالكتاب العظيم ... بالقرآن ... عن كل ماعداه ... وفي فترة الازدهار العباسي وتمام التزاوج بين الحضارتين العربية والفارسية بلغ الشعر أعلى قمة ، فلا غرابة اذن أن يقف الشعر والنثر في خط دفاع مشترك للمحافظة على مجدهما أمام تسلل هذا النوع الأدبي الجديد .

ومن الغريب يا سيدي أن الشعر العربي في العشرين الأولى من هذا القرن أتاح للقصة ما لم يتح للقصة . فلم يكن غريبا ان يتغزل الشاعر ويقول مايشاء ولكن كاتب القصة ـ في هذه الفترة ـ كان يحرم عليه مايباح للشاعر .

ضحك محمود تيمور واستطرد :

ولعل ذلك من باب التعصب لأشياءنا ... فالشعر من أدبنا منذ التاريخ الأول فلا عيب عليه اذا ملك حريته وأكثر ... أما القصة ... فهي « بنت الحيران » .

قال محمود تيمور مبتسما :

ـ من طريف مايذكر انه كان هناك مجلة اسمها « الضياء » لصاحبها المرحوم «الباراجي» وكنت أنا صغير أقرأ هذه المجلة وكانت تنشر في آخر صفحة بابا تحت عنوان « فكاهات » فماذا تظن هذه الفكاهات ؟

قلت : نكت أو طرف أدبية .

فقال تيمور :

ـ لا ٠ بل كانت قصصا تصور ٠٠٠ وهي هذه الحكايات قرأتها لمرلوك هولمز مترجما

لكن الذي يذكر بمصر وعرفان هو ماعمله المرحوم حافظ عوض في جريدته (المزيد) فقد كان يشجع القصة ٠ ولما لم يجد قصصا عربية فانه كان ينشر قصصا مترجمة من النوع الذي كان القراء يشتهونه في ذلك الوقت مثل قصص المغامرات والحب ٠

لكن جيل الرواد كان مؤمنا بفكرته ٠ كانت امكاناتنا ضعيفة الا بعض اعمال محمد تيمور ٠ كانت سفنا صغيرة والطريق جديدة ولا احد يشجعنا ٠ وهذا هو الجو الذي غرسنا فيه حديقة القصة العربية ٠٠٠ تصور !!

وظللنا صمت ٠ كنت أتذكر فيه ـ ولعله كان يعمل مثلي ـ كتاب القصة العرب الذين يعتز بهم الفن القصصي اليوم ٠ وحملني اسال نفسي هل ينصفل فصل الرواد حتى ولو كان عملا متواضعا جدا عن الأعمال الكبيرة التي يرتها من بعدهم ٠ فوصلت الى أن عمل الرائد هو النواة الحقيقية للحلية الحية وأننا ان سكنا الشر يوما من الأيام فيجب أن تذكر الأعمال التي لم تنجح والتي نجحت في المحاولات الأولى لارتياد الفضاء ٠

كان في راسي اسئلة كثيرة ٠ كنت أشعر نحو تيمور بالتلمذة والصداقة والزمالة والأخوة ٠ مع أنه أكبر مني سنا وسنا ٠ وقرأت له بشوق وأنا طالب صغير وموظف شاب ٠

وكنت في هذه الأيام أعتقد أن تيمور يقفل دونه سبعة أبواب وأن لقاءه عسر حتى رأيته لأول مرة يمشي الهوينى في حديقة المجمع اللغوي القديم قبل ان يكون عضوا فيه ووقفت من بعيد اتامله ٠ رأيته طويلا ٠٠٠ رأيته رقيقا ٠٠٠ لكني لم أجرؤ على أن أسلم عليه ٠ خفت يومئذ من شيء واحد هو ، أن يسألني عن اسمي !! فماذا أقول له !! ماذا يقول الكرة للمشهور !! فقنعت بالنظر اليه ٠

ورفعت نظري اليه ٠ كان لا يزال على كرسيه المرتفع في نادي القصة والسابقة الى يميني ٠ والليل في الخارج ٠ وادع ساكن ٠٠٠ وسماء شهر يونية تلمع بالنجوم، وحدائق ، حارتي سيتي ، تظهر في وضوح وتغيب في غموض كلما أضاء ثم اطفأ اعلان ، البيون ، الملون فوق احدى العمارات ٠

قلت لمحمود تيمور أخيرا :

ـ لابد انك ستزور الأندلس ٠

فاجاب :

ـ تلك فرصة ٠ فرصة عظيمة لي ٠ بعد أن انتهي من العملية بسلام سأرحل الى الجنوب وسأرى الأندلس والحضارة العربية ٠٠٠ ومواقع اقدام طارق بن زياد التي لم يمحها الزمن ٠

فقلت لمحمود تيمور :

ـ ونحن ٠٠٠ نحن سنرحل معك بقلوبنا ، انك ستكون في وطنك هناك لان وطنك ـ الذي يكرم الكتاب ـ قد كرمك ٠ وستكون معك ٠٠٠ لاننا لن ننساك ٠٠٠ وبالتالي لا تستطيع أن تنساني ٠٠٠ حتى تعود !!